ظهور الخوارج

الدكتور سليم النعيمي

عضو المجمع العلمي العراقي

لقد اعتاد المؤرخون أن يبدأوا تاريخ الخوارج منذ وقعة صفين وقبول التحكيم فيها وانقسام جيش الامام علي نتيجة لذلك ، يستوي في ذلك قدماؤهم ومحدثوهم .

ولكن يظهر لنا أنه لابد من ان نعود بالحوادث الى ما قبل صفين ، لكي نستطيع ان نتفهم بوضوح اسباب هذا الانقسام الذي حدث في معسكر علي ، فانه فيما نرى ليس الا نتيجة لمنطق الحوادث التي سبقته .

مهما قيل في انتخاب أبي بكر لخلافة المسلمين يوم السقيفة ومهما قيل في عهده الى عمر بالخلافة من بعده . فان كلاً منهما قد تصرف في شؤون الحكم تصرفاً أرضى جميع المسلمين ، حتى ان الذين سخطوا بيعتهما ، أول الأمر ، لم يجدوا في تصرفهما سبباً لاظهار هذا السخط ، ولم ينكروا عليهما شيئاً ابان خلافتهما .

نعم اننا نجد المؤلفين المتأخرين يذكرون في كتبهم مآخذ ينكرونها عليهما [1] ولكننا نعتقد أن هذه المآخذ لم تكن معروفة في عهد أبي بكر وعمر . ولم تظهر الا بعد زمن طويل حين نشأت نظرية الامامة في شكلها المعروف .

---

(١) للمرتضى : الشافي ص ١١٦ وما يليها . ابن أبي الحديد . شرح النهج ج ١ ص ١٢٢ ، ج ٤ ص ١٦٦ ، ١٩٠ .

لقد اصبحت سيرة الخليفتين المثل الذي يجب أن يتبعه من يخلفهما بعد العمل بكتاب الله وسنة الرسول [1] . وحتى كان رفض علي السير على سنتهما احد الاسباب ، ان لم يكن السبب الاول ، لعدم انتخابه خليفة بعد عمر في الشورى [2] .

وقد رضي عثمان ان يعمل بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده فعهد اليه بالخلافة . وظل في النصف الأول من حكمه يتمتع برضا المسلمين عامة وقريش خاصة بل كان أحب اليهم من عمر لما اتصف به من دماثة خلق ولين طبع .

ثم ظهرت بعد ذلك بوادر السخط وأسباب الفتنة فاتسعت وعمت حتى ختمت بمأساة يوم الدار .

ولسنا نريد هنا أن نستقصي الحوادث التي أدت إلى هذه المأساة فان هذا قد يخرج بنا عن منهج هذا البحث . ولكنا نريد أن نؤكد أن عثمان قد نفذ العهد الذي قطعه على نفسه طوال مدة خلافته ولم يخرج عن سيرة الخليفتين من قبله .

غير أن المشاكل التي قد ثارت أثناء خلافته انما كانت قد بدرت بوادرها في عهد الخليفة عمر من قبله . وفي معالجة هذه المشاكل ظهر الفرق بين موهبتهما وكفاءتهما [3] .

ان الفتوح التي بدأت أيام أبي بكر، واستمرت في خلافة عمر وعثمان من بعده ، وأدت الى أن يملك العرب مملكة فارس وجزءاً كبيراً من مملكة الروم ، قد غيرت من طبيعة الدولة الناشئة .

فالدولة العربية الجديدة قد أصبحت بطبيعتها بحاجة ماسة الى تنظيمات جديدة لم تكن تحتاجها حكومة المدينة . وكانت تجد في تنظيمات فارس والروم مثلاً تنسج على منواله وتعدلها تبعاً لظروف الحياة وطبيعة الدين الجديد .

---

(١) الطبري ج ٥ ، ص ٣٢ ، ٤٠ . المبرد . الكامل ص ٨٣ . ابن ابي الحديد شرح النهج ج ١ ص ، ٦٣ ، ٦٥ .

(٢) الطبري ج ٥ ص ٤٠ ابن ابي الحديد ج ١ ص ٦٥ البلاذري انساب ص ٢٢ .

(٣) دائرة المعارف الاسلامية ج ٣ ص ١٠٧٨ .

إن ما بدأه الخليفة عمر بن الخطاب من تنظيم وما حققه الامويون بعض الشيء من بعده وما أتمه العباسيون بعد ذلك وهو تحويل المجتمع العربي الذي تسوده روح القبلية ويميل الى الفوضى والتفرق الى دولة موحدة متماسكة كان عثمان قد حاول ان يحققه . غير ان لين طبعه وربما كبر سنه يضاف الى عوامل أخرى ، كل ذلك جعله لا يستطيع ان يختار الوسائل الناجحة لتحقيق ذلك .

لقد حاول عثمان ، على غرار ما فعل عمر ، ان يحقق للدولة وحدتها الادارية التي كان يهددها الافراط في روح الاستقلال التي يتمتع بها عمال الولايات . وقد استطاع عمر بقوة شخصيته ودأبه وحرصه وفهمه نفسية العرب ان ينجح فعلاً في تحقيق وحدة الادارة . وقد كان يحسن اختيار عماله من مختلف القبائل والبطون لا يتوخى فى ذلك غير الصلاح والكفاءة . وكان يراقبهم ويحاسبهم وكانت روح عمر تخيف عماله فلا يخالفوا عن أمره .

وقد رأى عثمان انه يستطيع ان يصل الى نفس النتيجة التي حققها عمر حين يختار عماله ممن يتصلون به بقرابة أو سبب .

لقد كان معاوية بن ابي سفيان والياً على الشام منذ خلافة عمر . أما البصرة والكوفة ومصر فقد عزل عثمان أبا موسى الاشعري عن البصرة وولى عليها مكانه ابن خاله عبد الله ابن عامر . وعزل سعد بن أبي وقاص الذي ولاه اول الامر على ولاية الكوفة تنفيذاً لوصية عمر ، وولى مكانه الوليد بن عقبة بن ابي معيط أخاه لأمه . وحين شغب عليه اهل الكوفة وادعوا عليه شرب الخمر وشهدوا عليه في ذلك عزله عنها وولى مكانه قريبه الأموي سعيد ابن العاص . كما عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وولى عليها مكانه عبد الله بن سعد ابن أبي سرح أخاه بالرضاعة [1] .

ثم ان عثمان كان قد اقطع اقطاعاً لبعض الافراد كما انه وسع الحمى حول المدينة وكان عمر قد فعل ذلك من قبل ولكن هذا الحمى للأراضي انما جعل مقصوراً لصدقات المسلمين

---

(١) الطبري تاريخ ج ٥ ص ٩٥ – ٩٩ .

يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين احد تنازع [1] وقد فعل عثمان ذلك ليكون للدولة احتياط في الأموال . وقد اضطرت عثمان الى ذلك الازمة الاقتصادية التي اشتدت في سنوات حكمه نتيجة للثراء السريع الذي اصاب المسلمين وتوقف الفتوح . وهذه الازمات تحصل عادة بعد الحروب ، كما اضطرته هذه الازمة الى تضيق مصاريف الدولة وتقليل عطاء الجند [2] .

يضاف الى ذلك ان عثمان كان قد نفل بعض عماله خمس الغنيمة ولكنه عاد فيما فعل حين وجد ان الجند يكرهون ذلك . كما اعطى بعض أقاربه والمقربين اليه أموالاً ولكنه استردها منهم حين انكروا عليه ذلك [3] .

كما أخذوا عليه أموراً اخرى . ولنستمع الى عثمان يذكر ما اخذوه عليه في خطبة له يخاطب أهل المدينة :

ان هؤلاء ذكروا اموراً قد علموا منها مثل الذي علمتم الا أنهم زعموا انهم يذاكرونيها ليوجبوها علي عند من لايعلم :

وقالوا اتم الصلاة في السفر وكانت لاتتم . ألا وإني قدمت بلداً فيه اهلي فأتممت لهذين الأمرين . أو كذلك ؟ قالوا اللهم نعم .

وقالوا وحميت حمى . وانى والله ما حميت حِمىً قبلي . والله ما حموا شيئاً لأحد . ماحموا الا ما غلب عليه أهل المدينة ، ثم لم يمنعوا من رعية أحداً ، واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها وبين احد تنازع ، ثم ما منعوا ولا نحوا منها أحداً . ومالي من بعير غير راحلتين ، ومالي ثاغية ولا راغية . واني قد وليت واني اكثر العرب بعيراً وشاءً ، فمالي اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجي . اكذلك ؟ قالوا : اللهم نعم .

وقالوا : كان القرآن كتباً فتركتها الا واحداً . ألا وان القرآن واحد جاء من عند واحد . وانما انا في ذلك تابع لهؤلاء . أكذلك ؟ قالوا : نعم .

(١) الطبري ج ٥ ص ١٠٢

(٢) انظر تفصيل ذلك في حوليات كاتاني ص ٧ ، ٨

(٣) الطبري ج ٥ ص ١٠١ ، ١٠٣

قالوا : واني قد رددت الحكم ، وقد سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم . والحكم مكي ، سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة الى الطائف . ثم رده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرسول الله ﷺ سيره ورسول الله ﷺ رده . اكذلك ؟ قالوا : اللهم نعم .

وقالوا استعملت الاحداث . ولم استعمل إلا مجتمعاً محتملاً مرضياً . وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنه . وقد ولي من قبلي أحدث منهم . وقيل في ذلك لرسول الله ﷺ أشد مما قيل لي في استعماله أسامة . اكذلك ؟ قالوا : اللهم نعم . يعيبون للناس ما لا يفسرون .

وقالوا اني اعطيت ابن أبي سرح ما افاء الله عليه وإني إنما نفلته خمس ما أفاء الله عليه من الخمس وكانت مائة الف . وقد انفذ مثل ذلك أبو بكر وعمر رضي الله عنهما . فزعم الجند انهم يكرهون ذلك فرددته عليهم وليس ذاك لهم . اكذلك ؟ قالوا : نعم .

وقالوا : إني أحب اهل بيتي وأعطيهم . فأما حبي فانه لم يحل معهم على جور ، بل احمل الحقوق عليهم . وإما إعطاؤهم فان ما اعطيهم من مالي . ولا استحل أموال المسلمين لنفسي ولا لأحد من الناس . ولقد كنت أعطي العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالي أزمان رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وأنا يومئذ شحيح حريص ، أخين أتيت على أسنان أهل بيتي ، وفني عمري ، وودعت الذي لي في أهلي ، قال الملحدون ما قالوا .

وإني والله ما حملت على مصر من الامصار فضلاً فيجوز ذلك لمن قاله ولقد رددته عليهم ، وما قدم علي إلا الاخماس ، ولا يحل منها لي شيء ، فولي المسلمون وضعها في أهلها دوني . ولا يتلفت من مال الله بفلس فما فوقه ، وما أتبلغ به ، ما آكل إلا من مالي .

وقالوا : أعطيت الارض رجالاً ، وإن هذه الارضين شاركهم فيها المهاجرون والانصار أيام افتتحت . فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو أسوة اهله . ومن رجع إلى أهله لم يذهب ذلك ما حوى الله له . فنظرت في الذي يصيبهم مما أفاءه الله عليهم فبعته لهم بأمرهم من رجال اهل عقار ببلاد العرب . فنقلت اليهم نصيبهم فهو في أيديهم دوني [1] .

ومهما قيل في صحة هذه الخطبة . فانها تجمع المطاعن التي توجه الى عثمان وما احدثه من

(١) الطبري تاريخ ج ٥ ص ١٠٢ – ١٠٣ .

احداث ، والرد عليها . وكان عثمان قد قسم ماله وأرضه في بني أمية وجعل ولده كبعض من يعطي فيه ، فبدأ ببني أبي العـــاص فأعطى آل الحكم رجالهم عشرة آلاف عشرة آلاف ، فأخذوا مائة ألف . وأعطى بني عثمان مثل ذلك وقسم في بني العاص وفي بني العيص و بني حرب [1] . فحملها المغرضون على انه كان يعطي أهله واقرباءه من أموال المسلمين .

كل ذلك جعل عثمان يبدو انه يؤثر اهله واقاربه واثار ذلك عليه شغب الشاغبين وانكر الناس سيرته وسياسته [2].

على انه يجب الحذر من كثير من هذه الروايات التي تتصـــل بعمال عثمان وتوجه اليهم المطاعن . فان كثرتهم كانوا يتولون اعمالاً في الدولة في عهد عمر . وهي وان كانت اعمالاً اقل اهمية من التي تولوها ايام عثمان غير انهم كانوا يتمتعون برضاه وثقته . نعم ان اقرباء عثمان هؤلاء لم يكونوا من المسلمين الاولين بل ان بعضهم توجه اليه التهم ، وعرف آباء بعضهم بعداوته الشديدة للاسلام ، فانكرت القبائل توليتهم الولايات الكبيرة . لقد قبلت هذه القبائل ان يتولى أمورهم كبار الصحابة ولكنهم لم يكن يرضون عن هؤلاء الولاة الذين لم يكن يؤهلهم الى اعمالهم هذه ، فيما يرون ، الا انهم اقرباء الخليفة وبدأوا يعتقدون ان قريشاً تحاول بذلك ان تمد سلطانها على القبائل العربية الاخرى [3] وفي ذلك يقول الشاعر :

فررت من الوليد الى سعيد ... كأهل الحجر اذ جزعوا فباروا

بلينـــا من قريش كل عام ... أمير محـــدث أو مستشار

لنا نـــار نخوفهـــا فنخشى ... وليس لهم فلا يخشون نار

وهكذا أدت وسائل عثمان الى تحقيق وحدة الدولة وتمكين نفوذه على العمال وكبح ميلهم الى الاستقلال فى الامر الى ظهور معارضين وخصوم في أوساط العرب المختلفة وقد

---

(١) الطبري ج ٥ ص ١٠٣

(٢) » ج ٥ ص ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٩

(٣) » تاريخ ج ٥ ص ٨٦ ، ٨٨ ابن الاثير الكامل ج ٣ ص ٥٣

التف هؤلاء حول بعض كبار الصحابة الطامحين الى الخلافة [1] .

ففي البصرة والكوفة كان القراء (وكثير منهم من تلاميذ عبد الله بن مسعود وكان قد سخط على عثمان لاسباب ذكرها الرواة) قد بدأوا حملة السخط على عثمان وسياسته واجتمعت حولهم عناصر مريبة وعناصر موتورة قد نالها من عثمان أدب . حتى كتب سعيد ابن العاص والى الكوفة الى عثمان يقول اني لا أملك من الكوفة مع الاشتر واصحابه من القراء وهم السفهاء شيئاً [2] .

وقد بدأت حملة السخط على عثمان فى الكوفة ، ثم تجاوزتها الى البصرة ومصر ، وانتشرت قالتهم واذاعتهم ، يؤلبون ويجتمعون على عيب عثمان ، وولاته والطعن في دينه [3] . ويقولون انه قد غير وبدل وبسط يده في اموال المسلمين يسلها الى اهله واقاربه وانه قد نكث عهده وخالف سيرة أبي بكر وعمر . وكثروا على عثمان ونالوا منه اقبح ما نيل من أحد وهم يظهرون الى ذلك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر [4] .

ونحن لا نعلم عن هؤلاء القراء شيئاً على وجه التحقيق . وكل الذي نستنتجه من الروايات المختلفة فى كتب التاريخ ان كثرتهم كانوا من الاعراب . هاجروا من البادية الى الحاضرة وبخاصة البصرة والكوفة فاتصلوا ببعض كبار الصحابة يتفقهون في الدين ، وانصرفوا الى القرآن يحفظونه ويتدارسونه ويقرأونه تعبداً لله ومن هنا جاء اسمهم . وانصرفوا الى العبادة واكثروا من الصلوات فكانت سيماء السجود ظاهرة في جباههم حتى كانوا يسمون سود الجباه ورهبان الليل ومالوا الى الزهد ، وتشربت روح الاسلام في نفوسهم وبذلك ضعفت علاقاتهم بقبائلهم وزالت من نفوسهم العصبية القبيلية لتحل محلها

---

(١) الطبري تاريخ ج ٥ ص ٩٦ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، المبرد : الكامل ص ١

(٢) البلاذرى انساب ج ٤ ص ٤٠

(٣) الطبرى تاريخ ج ٥ ص ٨٨ — ٩٠

(٤) الطبرى تاريخ ج ٥ ص ٩٦ ، ١٠٤

روح التمسك بالدين والايمان بتعاليمه ولذلك كانوا أقل الناس تمسكاً بصلة الدم والنسب ، فكانوا من قبائل متفرقة واكثرهم من بكر وتميم ، تجمعهم روح الاسلام ويؤلف بينهم تقى الله ويريدون المساواة بين المسلمين .

ولم تصرفهم العبادة عن الاهتمام بأمور المسلمين وشؤون عامتهم ، بل كانوا على العكس من ذلك يرون ان العمل بكتاب الله وسنة رسوله اصل من اصول الايمان ولم يكونوا يقرأون القرآن للتعبد فقط بل ليستمدوا منه قواعد العمل وتصريف الامور .

ولا يفوت المرء ان يلاحظ ان العقلية البدوية الساذجة ظلت مسيطرة عليهم في فهمهم لنصوص القرآن وتأويله تلك العقلية التي ترى الامور بسيطة ساذجة ، فالامر إما خير أو شر ، وإما كفر أو ايمان ، وإما أبيض أو أسود ، ثم لاشيء غير ذلك .

كما ان نظرتهم الى الدولة ظلت ساذجة فحكومة المدينة في عهد الرسول ﷺ وفي عهد الخليفتين من بعده وفي الفترة الاولى من حكم عثمان المثل الذي يجب ان يحتذى . ترى ذلك في اسلوب جدلهم وطريقة فهمهم لآيات القرآن الكريم كما تراه فى تصرفهم وسلوكهم في الاحداث المختلفة .

لقد كان هؤلاء القراء فى الشام اقل عدداً منهم في العراق . فقد كانوا في البصرة والكوفة اكثر عدداً واظهر نفوذاً . ولم يكن يجمعهم نظام أو حزب وانما كانت تجمع بينهم العقيدة وهي الايمان بالله والتمسك بالقرآن وسنة الرسول والعمل بهما في تصريف شؤون المسلمين وهذه العقيدة هى التي تربط بينهم وهى التى حملت قراء الشام على ترك معاوية والالتحاق بجيش علي في صفين [1] .

ولم يحتفظ القراء بعقيدتهم لانفسهم بل حاولوا نشرها وكان لهم تأثير كبير على الجماهير.

ولما كانت عقيدتهم ان العمل جزء من الايمان لم يرتضوا المواقف السلبية وانما كانوا

---

(١) نصر بن مزاحم ، صفين ص ٩٨ ـ ٩٩ ، ١١٤ ابن ابى الحديد شرح النهج ج ١ ، ٣٤٢ ـ ٣٤٣ ، ٤٨٠ .

يرون ان واجب المسلم ان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويقاتل في ذلك وطالما رددوا وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة .

وقد نظروا الى اعمال عثمان وحكموا عليها بعقليتهم البدوية الساذجة فقد اسخطهم ان يقصي أهل السابقة في الاسلام عن تولي أمور المسلمين وان يتولاها احداث من بني أمية ليست لهم مثل هذه السابقة . واعتقدوا ان عثمان قد خالف سيرة أبي بكر وعمر واحدث احداثاً تخالف الكتاب والسنة وآثر القربى وغير حكم الله [1] . وكانوا يثيرون الناس ضد عثمان وضد ولاته . وحين أمر عثمان مستمعاً لنصيحة ولاته بنفي بعض هؤلاء القراء من الكوفة تأديباً لهم . اشتد السخط وقوى الانكار واتسعت الفتنة [2] وقد اشترك هؤلاء القراء في حصار عثمان وقتله .

وفي هذه الفتنة ضد عثمان نشأت فكرة الخوارج . وبين هؤلاء القراء نجد الخوارج الاوائل . إذ نجد من هؤلاء القراء الذين كانوا يؤرثون الفتنة ضد عثمان في البصرة والكوفة زيد بن حصين الطائى ، وشريح بن أوفى العبسي، وحرقوص بن زهير السعدي الذين اصبحوا رؤوس الخوارج بعد قبول التحكيم فى صفين [3] .

ومن الحق ان نلاحظ ان فريقاً من القراء الذي كانوا ينكرون على عثمان سياسته قد انكروا قتله في الفتنة التى أرثوها فقد كان يكفيهم فيما قالوا ان يعتدل او يعتزل [4] كما ان منهم من تحرج عن الاشتراك في هذه الحروب التى ثارت بين المسلمين بعد أن بويع علي بالخلافة .

ففي حرب الجمل امتنع عدد منهم عن الاشتراك فى الحروب واعتزلوها ؟ ثم حين رأى

(١) البلاذرى أنساب ج ٤ ص ٤١

(٢) الطبرى تاريخ ج ٥ ص ٨٥ ، ٩٠

(٣) الطبرى » ج ٥ ص ١٨٠ البلاذرى انساب ج ٤ ص ٤٠ ـ ٤١ البلاذرى انساب مخطوطة باريس ص ٥٣٥

(٤) البلاذرى ، انساب مخطوطة باريس ص ٤٠٢ ، ٤٧٣

(٥) الطبرى تاريخ ج ٥ ص ١٠٤ ، ١٩٥ « البلاذرى انساب ، مخطوطة باريس ص ٤٩٠

علي بعد انتصاره في وقعة الجمل السير الى صفين لمحاربة معاوية جاءه عدد من هؤلاء القراء ، فقالوا : يا امير المؤمنين : انا قد شككنا في هذا القتال ، ولا غناء بنا ولا بك ولا بالمسلمين ممن يقاتل العدو ، فولنا بعض هذه الثغور فوجههم علي الى ثغر الري . وآخرون قالوا له انا نخرج معكم ، ولا ننزل عسكركم حتى ننظر في امركم وأمر أهل الشام فاعتزلوا الحرب[1] وقد جهد هؤلاء ان يصلحوا بين اهل الشام واهل العراق وان يكفوهم عن الحرب فلم يوفقوا .

ولكن كثرة القراء لم تتردد ولم تتشكك . ولم تنكر قتل عثمان وكانوا يرون انه انما قتله أصحاب محمد وقراء الناس حين أحدث ما احدث وخالف حكم الكتاب [2].

وقد بايعوا علياً لقرابته وسابقته في الاسلام وكانوا يرون انه إن ظهر ليكونن مثل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما » [3] واتبعوا علياً وناصروه وحاربوا معه في الجمل وصفين ، وكانوا من اشد انصاره اقداماً وتضحية في هذه الحروب التي خاضها . وكانوا يرون في الخارجين عليه خارجين عن الدين تحل لهم دماؤهم .

وفي صفين حين عبأ علي جيشه وعقد الالوية وكتب الكتائب جعل قراء اهل البصرة كتيبة امر عليها مسعر بن فدكي التميمي وجعل من قراء اهل الكوفة كتيبتين في رواية وثلاث كتائب في رواية اخرى [4] .

وقد ابدى هؤلاء القراء في هذه الحروب بسالة واقداماً وكانوا يثبتون حين ينكشف غيرهم وقتل منهم عدد كبير [5] .

استعرت حرب صفين وطال امرها واكلت الحرب الفريقين وكادت القبائل ان تتفانى ورجحت في الاخير كفة اهل العراق وخشي معاوية الهزيمة فأمر برفع المصاحف على رؤوس

(١) الطبري تاريخ ج ٥ ص ١٧٤ ، ١٩٥ البلاذري انساب مخطوطة باريس ص ٤٩٠

(٢) نصر بن مزاحم صفين ص ١٨٥

(٣) الطبري ج ٦ ص ٣١

(٤) نصر بن مزاحم صفين ص ١٠٨ ، ١١٩ ابن ابي الحديد شرح النهج ج ١ ص ٣٤٧ ، ٤٨٠

(٥) نصر بن مزاحم ص ١٢٧ ، ١٣٤ ، ١٨٦ ابن أبي الحديد شرح النهج ص ٤٨٦

الرماح . وتنادى اهل الشام يقولون هذا كتاب الله بيننا وبينكم : من لثغور الشام بعد اهل الشام ومن لثغور العراق بعد اهل العراق .

فلما رأى اهل العراق الصحف مرفوعة واهل الشام يدعونهم الى حكم القرآن فيما اختلفوا فيه وقعت الفرقة في صفوفهم واختلفوا في الرأي . ومع ان علياً كان يرى ان الامر لا يعدو خدعة . غير ان كثرة جيشه ، وكانت قد ملت الحرب ، قد رحبت بهذه الدعوة وآثرت قبول التحكيم فاضطر علي على قبوله وهو له كاره . فانكرت كثرة القراء عليه ذلك ، وخرجوا عليه .

وهكذا ميز قبول التحكيم من قبل علي هذا الفريق من القراء من انصار علي واتباعه عن غيرهم ممن شاركهم في انكار سياسة عثمان فاصبحوا فريقاً لوحده سموا بعد ذلك بالخوارج .

إن بعض الروايات تقول ان القراء الذين اصبحوا خوارج بعد ذلك هم الذين اضطروا علياً على قبول التحكيم ثم رفضوه بعد ذلك واتخذوه حجة للخروج عليه .

ولا بد لنا من ان نقف قليلا لنفحص هذه الروايات التي تروى لنرى وجه الحقيقة فيها.

ان اقدم هذه الروايات هي رواية ابي مخنف عن مالك بن أعين الجهني عن زيد بن وهب الجهني . فابو مخنف يقول فيما ينقله عنه الطبري في تاريخه [1] .

فلما رأى عمرو بن العاص ان امر اهل العراق قد اشتد وخاف في ذلك الهلاك قال لمعاوية هل لك في أمر اعرضه عليك لا يزيدنا إلا اجتماعا ولا يزيدهم إلا فرقة قال نعم . قال نرفع المصاحف ثم نقول ما فيها حكم بيننا وبينكم . فان أبى بعضهم ان يقبلها ، وجدت فيهم من يقول بلى . فتكون فرقة تقع بينهم . وان قالوا بلى نقبل ما فيها رفعنا هذا القتال عنا وهذه الحرب الى أجل أو إلى حين . فرفعوا المصاحف بالرماح . وقالوا هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم من لثغور أهل الشام بعد أهل الشام ، ومن لثغور أهل العراق بعد أهل العراق .

فلما رأى الناس المصاحف قد رفعت قالوا نجيب الى كتاب الله عز وجل ونثيب اليه .

---

(١) الطبري تاريخ ٦ ص ٢٦ وما بعدها .

قال ابو مخنف حـــدثني عبدالرحمن بن جندب الازدي عن ابيه : ان علياً قال : امضوا على حقكم وصدقكم قتال عدوكم. فان معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي معيط وحبيب بن مسلمة وابن أبي سرح والضحاك بن قيس ليسوا باصحاب دين ولا قرآن أنا اعرف بهم منكم قد صحبتهم أطفالا وصحبتهم رجالاً فكانوا شر أطفال وشر رجال ويحكم إنهم ما رفعوهـــا ثم لا يرفعونها ولا يعلمون بما فيها . وما رفعوها لكم الا خديعة ومكيدة . فقالوا له ما يسعنا ان ندعى الى كتاب الله عز وجل فنأبى أن نقبله . فقال لهم فاني إنما قاتلتهم ليدينوا بحكم هذا الكتاب ، فانهم قد عصوا الله عز وجل فيما أمرهم ونسوا عهده ونبذوا كتابه .

فقال له مسعر بن فدكي التميمي وزيد بن حصين الطائي ثم السنبسي في عصابة معهما من القراء الذين صاروا خوارج بعد ذلك : يا علي أجب إلى كتـــاب الله إذ دعيت إليه والا ندفعك برمتك الى القوم او نفعل كما فعلنا بابن عفان . انه علينا ان نعمل بما في كتاب الله عز وجل فقبلناه . والله لتفعلنها أو لنفعلنها بك .

قال : قال فاحفظوا عني نهيي إياكم واحفظوا مقالتكم لي . أما انا فان تطيعوني تقاتلوا وان تعصوني فاصنعوا ما بدالكم . قالوا له اما لا ، فابعث الى الاشتر فليأتك .

قال ابو مخنف حدثني فضيل بن خديج الكندي عن رجل من النخع انه رأى ابراهيم ابن الاشتر دخل على مصعب بن الزبير . قال كنت عند علي حين اكرهه الناس على الحكومة وقالوا ابعث الى الاشتر فليأتك . قال فارسل علي إلى الأشتر يزيد بن هانىء السبيعي : أن ائتني . فأتاه فبلغه . فقال له ليس هذه الساعة التي ينبغي لك أن تزيلني فيها عن موقفي . إني قد رجوت أن يفتح لي فلا تعجلني. فرجع يزيد بن هانىء إلى علي فاخبره . فما هو إلا أن انتهى إلينا فارتفع الهرج وعلت الأصوات من قبل الأشتر . فقال له القوم : والله ما نراك إلا أمرته أن يقاتل . قال : من أين ينبغي أن تروا ذلك . رأيتموني سارترته . أليس إنما كلمته على رؤوسكم علانية ، وأنتم تسمعوني . قالوا فابعث إليه فليأتك والا والله اعتزلناك . قال له ويحك يا يزيـد قل له اقبل الي فان الفتنة قد وقعت . فابلغه ذلك . فقال له ألرفع

المصاحف ، قال نعم . قال أما والله لقد ظننت حين رفعت أنها ستوقع اختلافاً وفرقة .. ألا ترى ما صنع الله لنا أينبغي أن أدع هؤلاء وانصرف عنهم . وقال يزيد بن هانىء : فقلت له أتحب أنك ظفرت ها هنا ، وأن أمير المؤمنين بمكانه الذي هو به يفرج عنه أو يسلم . قال : لا والله ، سبحان الله . قال فانهم قد قالوا لترسلني الى الاشتر فليأتينك أو لنقتلنك كما قتلنا ابن عفان . فاقبل حتى انتهى إليهم فقال يا اهل العراق يا أهل الذل والوهن ، حين علوتم القوم ظهرا ، وظنوا أنكم لهم قاهرون رفعوا المصاحف يدعونكم الى ما فيها . وقد والله تركوا ما امر الله عز وجل به فيها وسنة من انزلت عليه صلى الله عليه وسلم . فلا تجيبوهم . امهلوني عدو الفرس فاني قد طمعت في النصر .

قالوا إذا ندخل معك في خطيئتك . قال فخذلوني عنكم ، وقد قتل أماثلكم وبقي أراذلكم متى كنتم محقين ، أحين كنتم تقاتلون وخياركم يقتلون فانتم الآن إذ أمسكتم عن القتال مبطلون . أم الآن أنتم محقون . فقتلاكم الذين لا تنكرون فضلهم فكانوا خيراً منكم في النار إذاً ؟ قالوا دعنا منك يا أشتر . قاتلناهم في الله عز وجل وندع قتالهم لله سبحانه . انا لسنا مطيعيك ولا صاحبك فاجتنبنا . فقال خدعتم والله فانخدعتم ودعيتم الى وضع الحرب فاجبتم . يا أصحاب الجباه السود ، كنا نظن صلواتكم زهادة في الدنيا وشوقاً إلى لقاء الله عز وجل . فلا أرى فراركم إلا إلى الدنيا من الموت . ألا قبحا يا أشباه النيب الجلالة وما انتم برائين بعدها عزاً ابداً فابعدوا كما بعد القوم الظالمون . فسبوه فسبهم فضربوا وجه دابته بسياطهم واقبل يضرب بسوطه وجوه دوابهم وصاح بهم علي فكفوا . وقال للناس قد قبلنا ان نجعل القرآن بيننا وبينهم حكما .

وينقل لنا نصر بن مزاحم رواية قريبة من هذه الرواية فيقول وفي حديث عمر بن سعد : قال لما رفع اهل الشام المصاحف على الرماح يدعون إلى حكم القرآن قال علي عليه السلام « عباد الله اني أحق من اجاب الى كتاب الله ولكن معاوية وعمرو بن العاص وابن ابي معيط وحبيب بن مسلمة وابن ابي سرح ليسوا باصحاب دين ولا قرآن اني اعرف به منكم صحبتهم اطفالا وصحبتهم رجالا فكانوا شر اطفال وشر رجال انها كلمة حق يراد بها

باطل . انهم والله ما رفعوها أنهم يعرفونها ويعملون بها . ولكنها الخديعة والوهن والمكيدة . اعيروني سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة فقد بلغ الحق مقطعه ولم يبق إلا ان يقطع دابر الذي ظلموا . »

فجاءه زهاء عشرين الفاً مقنعين في الحديد ، شاكي السلاح ، سيوفهم على عواتقهم وقد اسودت جباههم من السجود يتقدمهم مسعر بن فدكي ، وزيد بن حصين ، وعصابة من القراء الذي صاروا خوارج من بعد فنادوه باسمه لا بامرة المؤمنين : ياعلي اجب القوم الى كتاب الله اذ دعيت اليه ، والا قتلناك كما قتلنا ابن عفان فوالله لنفعلنها ان لم تجبهم . فقال لهم : ويحكم ، انا اول من دعا الى كتاب الله ، واول من اجاب إليه ، وليس يحل لي ولا يسعني في ديني أن أدعي الى كتاب الله فلا أقبله . اني انما اقاتلهم ليدينوا بحكم القرآن فانهم قد عصوا الله فيما أمرهم ونقضوا عهده ، ونبذوا كتابه ، ولكني قد اعلمتكم أنهم قد كادوكم ، وانهم ليس العمل بكتاب الله يريدون ، قالوا فابعث الى الاشتر ليأتينك . وقد كان الاشتر صبيحة ليل الهرير قد اشرف على عسكر معاوية ليدخله .

ثم يسوق بعد هذا حديث فضيل بن خديج عن رجل من النخع كما رواه ابو مخنف عنه مع اختلاف في آخر الحديث اذ قال بعد ان صاح بهم علي فكفوا . وقال الاشتر يا امير المؤمنين احمل الصف على الصف يصرع القوم فتصايحوا : ان علياً امير المؤمنين قد قبل الحكومة ، ورضي بحكم القرآن ولم يسعه الا ذلك . قال الاشتر ان كان امير المؤمنين قد قبل ورضي بحكم القرآن فقد رضيت بما رضي امير المؤمنين ، فاقبل الناس يقولون : قد رضي امير المؤمنين ، قد قبل امير المؤمنين . وهو ساكت لايبض بكلمة ، مطرق الى الارض

قال : وقال الناس : قد قبلنا ان نجعل القرآن بيننا وبينهم حكما .

وواضح ان حديث عمر بن سعد هذا الذي يسوقه من غير ذكر روايته ، هو نفس رواية ابي مخنف عن جندب الازدي مع شيء من التزيد والتهويل واضح . لالقاء تبعة قبول التحكيم على هؤلاء القراء الذين اصبحوا خوارج من بعد . فليس صحيحاً ان تكون

كتيبة مسعر بن فدكى قد بلغت عشرين الفاً ، والروايات تجمع ان الذين خالفوا علياً وصاروا خوارج ، كانوا اثني عشر الفاً وان روايات تقول ان بعض هؤلاء كانوا قد فارقوا علياً قبل كتاب القضية وبعضهم فارقه بعد كتاب القضية .

ونحن نرجح ان رواية جندب الازدى التي ساقها ابو مخنف قد اقحم فيها اسم مسعر ابن فدكى وزيد بن حصين والعصابة معهما من القراء اقحاماً لنفس السبب وكذلك الكلام الذي وجهه الاشتر الى اصحاب الجباه السود . اذ ان الاختلاف واضح بين روايته ورواية فضل بن خديج فهم في روايته يهددون الامام علياً بان يفعلوا به ما فعلوا بابن عفان وفي رواية فضل بن خديج يهددونه بان يعتزلوه . ثم اننا نعلم من روايات أخرى ان مسعر بن فدكى هذا كان من اكثر القراء تطرفاً وتشدداً وانه هو الذي قتل عبدالله بن خباب بن الارت الصحابي المشهور حين جاز به فاخبره بالتحكيم : فقال : ان ابي اوصاني ان الزم بيتي اذا وقعت الفتنة . فقال : ان الله اوصانا بغير ما اوصاك به ابوك . قال : قاتلوهم حتى لا تكون فتنة فقتله مسعر . فاتى أصحاب النهروان فانكروا عليه ذلك وهموا بقتله وفر منهم وبرئوا منه [1] كما انه ليس مما يمكن قبوله ان هؤلاء القراء وهم قلة في جيش علي يستطيعون ان يتهددوه ثم لا تنكر عليهم كثرة الجيش ذلك .

ثم ان هذه الرواية المفردة . تعارضها روايات اخرى لا تذكر ان هؤلاء القراء الذين اصبحوا خوارج من بعد قد اضطروا علياً على قبول التحكيم . وقد سبق ان ذكرنا رواية ابي مخنف عن زيد بن وهب الجهني التي تقول فلما رأى الناس المصاحف قد رفعت قالوا نجيب الى كتاب الله وننيب اليه .

كما ان نصر بن مزاحم يروى لنا عن الشعبي عن صعصعة رواية مفصلة توضح لنا موقف اهل العراق حين رفعت المصاحف ونادى اهل الشام : يا اهل العراق كتاب الله بيننا وبينكم نكتفي بتلخيصها لطولها . فقد طلب عدى بن حاتم رفض ذلك ومناجزة القوم وكذلك فعل الاشتر وترك عمرو بن الحمق الرأي لعلي مع ميله الى المناجزة .

(١) الشماخي كتاب السير ص ٥١

ثم قال : فقام الاشعث بن قيس مغضباً : وقال يا امير المؤمنين إنا لك اليوم على ما كنا عليه امس . وليس آخر أمرنا كاوله ، وما من القوم أحد أحنى على أهل العراق ولا اوتر لاهل الشام مني . فاجب القوم الى كتاب الله فانك أحق به منهم . وقد احب الناس البقاء وكرهوا القتال .

فقال علي عليه السلام : ان هذا امر ينظر اليه . قال وخرج سعيد بن قيس يخاطب اهل الشام فقال : وقد دعوتمونا اليوم على ما قاتلناكم عليه بالامس . ولم يكن ليرجع اهل العراق الى عراقهم ولا اهل الشام الى شامهم بامر اجل من ان يحكم بما انزل الله .

وقام الناس الى علي فقالوا أجب القوم الى ما دعوك إليه فانا قد فنينا . قال : ذكروا ان الناس ماجوا ، وقالوا : اكلتنا الحرب وقتلت الرجال . وثارت الجماعة بالموادعة .

فقال علي « انه لم يزل امري معكم على ما أحب الى أن اخذت منكم الحرب . وقد والله أخذت منكم وتركت . وأخذت من عدوكم فلم تترك . وإنها فيهم أنكى وأنهك . الا إنني كنت امس امير المؤمنين فاصبحت اليوم مأموراً . وكنت ناهياً فاصبحت منهياً . وقد احببتم البقاء وليس لي ان احملكم على تكرهون » .

وتكلم رؤساء القبائل ، تكلم كردوس بن هانيء البكري باسم ربيعه فدعا الى الحرب.

وتكلم شفيق بن ثور البكري ورأى ان البقاء في الموادعة .

وتكلم حريث بن جابر البكري فدعا الى الحرب .

وكذلك فعل خالد بن المعمر . وترك حضين بن المنذر الربعي الامر الى علي . ودعا رفاعة بن شداد البجلي الى الموادعة .

قال وقال قوم نقاتل القوم على ما قاتلناهم عليه أمس . ولم يقل هذا الا قليل من الناس. ثم رجعوا عن قولهم مع الجماعة .

ومن هنا نرى ان كثرة جيش علي كانت تميل الى الموادعة وقبول التحكيم فاهل اليمن

---

(١) صفين : ص ٥٥ وما بعدها .

وعلى رأسهم الاشعث بن قيس كانوا يريدون ذلك واختلفت ربيعه فيما بينها

وليس في هذه الرواية اشارة الى موقف القراء من رفع المصاحف وقبول التحكيم ولعل نصر بن مزاحم لم يرد ان يذكر ذلك لئلا يناقض نفسه حين يروي لنا بعدها حديث عمر بن سعد .

ولكن البلاذري في كتابه انساب الاشراف [1] ينقل لنا هذه الرواية ملخصة ولكنها كاملة فيقول :

لما اجتمع علي ومعاوية على ان يحكما رجلين، اختلف الناس ، فكان عظمهم وجمهورهم مقرين بالتحكيم راضين به ، وكانت فرقة منهم من ذوي بصائرهم والعباد منهم تنكر الحكومة . وكانت فرقة منهم متوقفة . فاتت الفرقة المنكرة علياً ، فقالوا عد الى الحرب . وكان علي يحب ذلك . فقال الذين رضوا بالتحكيم : والله ما دعانا القوم الا الى حق وانصاف وعدل وكان الاشعث بن قيس وأهل اليمن أشدهم مخالفة لمن دعا الى الحرب . فقال علي للذين دعوا الى الحرب : ياقوم ، لقد ترون خلاف أصحابكم وأنتم قليل في كثير ، ولئن عدتم الى الحرب ليكونن أشد عليكم من أهل الشام فاذا اجتمعوا واهل الشام عليكم أفنوكم . والله ما رضيت ما كان . ولكن ملت الى الجمهور منكم خوفاً عليكم ثم أنشد وقال :

وهل أنا الامن غزية إن غوت غويت وان ترشد غزية أرشد

ففارقوه ومضى بعضهم الى الكوفة قبل كتاب القضية ، واقام الباقون معه على انكارهم التحكيم ناقين عليه يقولون لعله يتوب ويراجع .

فلما كتبت القضية وخرج بها الاشعث قال عروة بن جدير [وهو اخو ابي بلال مرداس بن اديه الذي اصبح رأس الخوارج الصفرية] يا اشعث ما هذه الدنية ؟ أشرط أوثق من شرط الله واعترضه بسيفه وضرب عجز بغلته وحكم .

فغضب للاشعث اهل اليمن حتى مشى الاحنف بن قيس وجارية بن قدامه ومعقل بن قيس وشبث بن ربعي ووجوه من تميم اليهم فرضوا وصفحوا [وكان عروة بن جدير تميمياً

(١) مخطوطة باريس ص ٥١٠ ه

ثم يذكر لنا البلاذري بعد ذلك فيقول [1] :

فلما كتب كتاب القضية نفروا من ذلك فحكم من حكم منهم ثم افترقوا ثلاث فرق .

فرجعت فرقة منهم الى امصارهم ومنازلهم الاولى فاقاموا بها . فكان ممن رجع الاحنف بن قيس وشبث بن ربعي وابو بلال مرداس بن أديه وابن الكواء . بعد ان ناشدهم علي وقال : اصبروا على هذه القضية ، فان رأيتموني قابلاً الدنية فعند ذلك ففارقوني . فساروا الى العراق الى منازلهم .

واقامت الفرقة الثانية وقالوا لا نعمل حتى ننظر إلامَ يصير شأنه . ومضت الفرقة التي شهدت على علي واصحابه بالشرك وهم اهل النهروان الذين قاتلوه .

فنحن اذا امام ثلاث روايات واحدة منها تلقى تبعة قبول التحكيم على القراء .

وقد رأينا كيف انها تحمل في ذاتها دليل رفضها لما فيها من تفصيلات ينقض بعضها البعض الآخر . كما أنها تخالف ما يقرره لنا الرواة عن موقف هؤلاء القراء من معاويه وانصاره ورأيهم فيهم .

ورواية اخرى يرويها ابو مخنف لا ذكر فيها لموقف القراء في هذا الاختلاف الذي حصل في جيش علي .

وثالثة تؤكد ان القراء قد انكروا التحكيم قبل كتابة القضية وبعد كتابة القضية وتؤيد هذه الرواية رواية يرويها لنا عمر بن سعد نفسه [2] فيقول : جاءت عصابة من القراء قد سلوا سيوفهم واضعيها على أعناقهم ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ما تنتظر بهؤلاء القوم أن نمشي اليهم بسيوفنا حتى يحكم الله بيننا وبينهم بالحق . فقال علي : قد جعلنا حكم الله بيننا وبينهم ولا يحل قتالهم حتى ننظر بم يحكم القرآن . وقد كان ذلك قبل كتابة الصحيفة .

ولو كان القراء يرون قبول التحكيم وكانوا هم الذين اضطروا علياً على قبوله لرأينا منهم

(١) انساب مخطوطة باريس ٥١٩

(٢) نصر بن مزاحم صفين ٥٠٩

من يشهد فى صحيفة التحكيم حين كتبت ، كما شهد دعاة الموادعة فيها ، ونحن نعلم ان الاشتر قد دعى للشهادة على ما فيها فقال ، في حديث يرويه عمر بن سعد ، لا صحبتني يميني ولا نفعتني بعدها الشمال ان كتب لي فى هذه الصحيفة اسم على صلح أو موادعة [1] .

ولا بد ان نشير الى ان كل هذه الروايات انما يرويها خصوم الخوارج ممن ينكر أمرهم ويقول بتكفيرهم وخروجهم من الدين .

ولم يبق لنا من الاخبار مما يمثل وجهة نظر الخوارج الا نتف قليلة نجد شيئاً منها في كتاب السير للشماخي . فهو يقول في امر التحكيم .

« ان اهل الشام لما رأوا انفسهم إلى التلاف أشار عمرو على معاوية ان ينادوا بان كتاب الله بيننا وبينكم فمن لثغور الشام من النصارى ومن لثغور العراق من فارس ، فرفعوا المصاحف على الرماح .

قال علي قد قبلت . فقام عمار بن ياسر . فقال : يا علي ، أما والله لقد أخرجها اليكم معاوية بيضاء ، من أقر بها كفر ، ومن انكرها سلم ، كفتنة نهر طالوت ، اشككنا فى ديننا ورددنا على بصائرنا ؟ أتحكم فى ديننا بعد مائة الف منا ومنهم . وقد دعاك طلحة والزبير وعائشة إلى ذلك فابيت ، وزعمت أن من خالف ضال ، حلال الدم ، وقد حكم الله في الملل ما قد سمعت فما فاءوا إلى أمر الله ولا طفيت الفتنة . فلما رأى علياً وأصحابه مسارعين إلى القضية ، نادى هل من رائح الى الجنة فحمل في خمسمائة من البدريين والعقبين والاحديين وغيرهم خيار من بقي ، بعد الشربة التي أخبره الرسول عليه السلام أنه آخر ما يدخل بطنه اللبن ، يقول اليوم القى الاحبة ، محمداً وحزبه .

وحمل علي بعد موت عمار فهزم أهل الشام ، وقد رفع أهل الشام المصاحف ، فقال الاشعث بن قيس : والله ما نرد ما دعونا اليه ابداً .

والصحيح ان رفع المصاحف عند انتقاض صفوفهم ، والدعاء إلى كتاب الله قبل موت

---

(١) نصر بن مزاحم صفين ٥٨٩ . الطبري تاريخ ج ٦ ص ٤٠ (٢) ص ٤٧ – ٤٨

عمار . وانكر الحكومة طائفة من اصحاب علي . فقال مالك بن الاشتر امهلوني غلوة فرسي فاني طمعت في النصر . قالوا اذن ندخل معك في خطيئتك . فقال متى كنتم محقين ! حين يقاتل خياركم فيقتلون ! أم الآن وخياركم الذين لا تشكون في فضلهم في النار او كلام هذا معناه .

فمر الاشعث ببني حنظلة وهو يسير على الاحياء يعرض على الناس امر الحكومة فحمل عليه عروة بن أدية ، فضربه فوقع السيف على عجز بغلته ، فقال : أين قتلانا . يا أشعث ، لا حكم الا لله ، وهو اول من قالها .

ثم ارسل معاويه : ابعثوا حكما منكم ، وحكما منا ، ونرضى بما يحكمان . فقبل علي القضية تبعاً لرضاء الاشعث والسواد الاعظم ممن معه . وانكرها الاخيار من المسلمين تبعاً لعمار وعبدالله بن بديل وغيرهما ممن قتل .

وبعض من خالفنا يقول طلب الحكومة بعد قتل عمار ، والصحيح انها قبله ، والنظر في رفع المصاحف بعده .

وكلام الشماخي هذا يمثل نظرة الخوارج الى قبول التحكيم ويحاول ان يستنتج ذلك من الروايات ما يوافقه . فهو يرى ان قبول التحكيم كان من قبل الاشعث والسواد الاعظم . وهو يحاول ان يقرر ان طلب الحكومة والدعوة الى كتاب الله كان قبل قتل عمار وان عماراً انكره وان رفع المصاحف كان بعد قتله .

ولم نجد في الروايات ما يؤيد ذلك اللهم الا رواية يرويها عمر بن سعد [1] ملخصها ان عمرو بن العاص استطاع ان يلقى عمار بن ياسر قبيل مقتله فجرى بينهما كلام فقال عمرو بن العاص يا ابا اليقظان ، ليس لهذا جئت ، انما جئت لاني رأيتك أطوع أهل هذا العسكر فيهم . أذكرك الله الا كففت سلاحهم وحقنت دماءهم وحرضت على ذلك ، فعلام تقاتلنا ؟ أولسنا نعبد الهاً واحداً الخ ..

فرد عليه عمار رداً شديداً .

---

(١) نصر بن مزاحم صفين ص ٣٧٢ ـ ٣٨٤

ولسنا نملك ونحن نعلم ان اخبار الخوارج قد طمست وان الانكار عليهم شديد من كل الفرق المسلمة الا نعرض ما يقول الشماخي من غير قبول أو رفض

ولئن اختلف الرواة حول موقف القراء من التحكيم قبل كتابة القضية فانهم مجمعون على انهم رفضوه بعد كتابة القضية وان رفضهم جاء سريعاً حين خرج الاشعث بذلك الكتاب يقرأه على الناس ويعرضه عليهم فيقرونه ، انكره فتيان من عنزة فحملا على اهل الشام فقتلا ، وانكره صالح بن شقيق وهو من رؤساء مراد وقال لا حكم الا لله ولو كره المشركون وانكره ، بنو راسب . فقالوا لا حكم الا لله . لا نرضى ولا نحكم الرجال في دين الله . فلما مر على طائفة من بني تميم فيهم عروة بن أديه وهو اخو ابى بلال بن اديه فقرأه عليهم ، قال عروة بن أديه أتحكمون الرجال في امر الله لاحكم الا لله فاين قتلانا يا أشعث ؟ ثم شد بسيفه ليضرب به الأشعث ، فاخطأه وضرب به عجز بغلته ، واندفعت الدابة وصاح به الناس ان أمسك يدك [1]

فلماذا رفض القراء الحكومة ! رفضوها لان قبولها يتضمن الشك في موقفهم في هذه الحروب التي خاضوها كما يتضمن الشك في موقف خصومهم في الجمل وصفين . وقد قتل منهم في هذه الحروب قتلى كثيرون وقتلوا من اصحاب معاوية كثيرين ايضاً . وقد كانوا وهم يَقتلون ويُقتلون يعتقدون أنهم على بصيرة من امرهم . لا يشكون انهم اصحاب حق يقاتلون فئة باغية لتفيء الى الحق او تحل لهم دماؤها . وهم مطمئنون الى ذلك ، مؤمنون به فقتلاهم شهداء في سبيل الحق . وهم يرون ان قبول التحكيم تشكيك في ذلك كله بل رفض له وتلك خطيئة لا يرون ارتكابها . وان على من ارتكبها ان يتوب ويعلن هذه التوبة « فان الله ، في رأيهم ، قد أمضى حكمه في معاوية واصحابه ان يقتلوا او يدخلوا في حكمهم » فلم يرضوا ان يحكم الرجال في دين الله ، فانه لا حكم الا لله [2] .

ثم أن معاوية واصحابه من أهل الشام انهم إنما كانوا يحاربون علياً وأهل العراق للثأر لعثمان ، وقد كان عثمان خليفة مهدياً ، يعمل بكتاب الله عز وجل ، وينيب الى امره تعالى

(١) نصر بن مزاحم . صفين ص ٤٨٨ . البلاذري . انساب مخطوطة باريس ص ٥١٠ . الطبري تاريخ ج ٦ ص ٣٠ .

(٢) نصر بن مزاحم . صفين ص ٥٨٩ ابن ابى الحديد . شرح النهج ج ١ ص ١٩٣ .

عدوا عليه فقتلوه . وان قتلة عثمان اصحاب علي . ومعاوية واصحابه يطالبون بدفعهم اليهم ليقتلوهم قصاصاً بما فعلوا [1] . فقبول التحكيم يعني ضمنا تبرير دعواهم ، ومن ثم تبرير سياسة عثمان وانه قتل مظلوماً . وهم لا يرون ذلك .

وانكار التحكيم هذا انما ميزهم عن غيرهم ممن انكر على عثمان سيرته وشارك في الفتنة لغرض غير غرضهم واسباب تختلف عن اسبابهم .

فلو انهم ثاروا على التحكيم الذي يحاول ان ينهي الخصومة بين علي ومعاوية عن غير طريق الحرب فكيف نفسر اجماع الخوارج على انكار سياسة عثمان وتكفيره في النصف الثاني من خلافته كما يجمع على ذلك المؤرخون [2] . ولماذا يصرون في اقوالهم وخطبهم على الطعن عليه وانه احدث احداثاً انحرف فيها عن سيرة ابي بكر وعمر وانهم حين يخرجون انما يخرجون ليسيروا بسيرتهما [2] . ويكفي ان نستشهد بما ينقله الطبري قال :

لما خرجت الخوارج من الكوفة أتى علياً أصحابه وشيعته فبايعوه وقالوا نحن اولياء من واليت واعداء من عاديت فشرط لهم فيه سنة رسول الله ﷺ .

فجاء ربيعة بن ابي شداد الخثعمي وكان شهد الجمل وصفين ومعه راية خثعم فقال له بايع على كتاب الله وسنة رسول ﷺ . فقال ربيعة على سنة أبي بكر وعمر . فقال له علي ويلك لو أن أبا بكر وعمر عملا بغير كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ لم يكونا على شيء من الحق فبايعه فنظر اليه علي وقال اما والله لكأني بك وقد نفرت مع هذه الخوارج فقتلت وكأني بك وقد وطئتك الخيل بحوافرها فقتل يوم النهر مع خوارج البصرة .

وهكذا نرى ان الخوارج انما خرجوا على عثمان تجمعهم الدعوة الى العودة الى سيرة ابي بكر وعمر . وانهم لم يخرجوا على علي وانما انكروا عليه قبوله التحكيم الذي رأوا فيه خطيئة وزلة ولو ان علياً رجع عن التحكيم لعادوا اليه . وهم لم يفارقوه اول الامر وانما

(١) الطبري . تاريخ ج ٦ ص ٣ ، ٤ .

(٢) الطبري : تاريخ ج ٩ ص ٩٦ . الاصبهاني اغاني ج ٢٠ ص ٩٩ .

اعتزلوه في حروراء وحينما كلمهم علي دخلوا الكوفة من عند آخرهم [1] وانهم لم يفارقوه حتى رأوا منه اصراراً على انفاذ الحكومة . بل لم تفارقه الا قلة منهم فلم تكن كثرتهم ترى قتال علي بل اعتزاله . وحتى في النهروان لم يحاربه من الاربعة آلاف الذين فارقوه الا قلة لا تتجاوز الالف والخمسمائة [2] . ولكنهم لم يكونوا يترددون في الخروج على انصار عثمان معاوية والامويين من بعده .

* * *

حين عاد علي بجيشه من صفين ، ابى الخوارج ان يدخلوا معه الكوفة واعتزلوه في قرية صغيرة بجوارها تدعى حروراء ومنها اطلق عليهم اسم الحرورية . وقد حاول علي ان يجعلهم يقبلون نظرة الكثرة من جيشه في التحكيم ، وحاولوا من ناحيتهم ان يحملوه على رفض التحكيم والسير الى جهاد معاوية . ثم دخلوا الكوفة وهم يأملون ان يرجع علي عن القضية ، ولكن علياً كان قد عقد عقداً واعطى ميثاقاً لا يحل له نقضه او الرجوع عنه .

وحين حل موعد التحكيم ورأوا ان علياً يريد انفاذ الحكومة حاولوا معه محاولتهم الاخيرة ليرجع عن القضية ويخرج بهم الى قتال عدوهم ولا يرسل حكمه ابا موسى الاشعري وجرى بينهم وبينه حوار عنيف ولكنه كان لا بد لعلي ان يفي بعهده الذي عاهد فلا ينقض الايمان بعد توكيدها . وكان الخوارج يرون ان هذا العهد ذنب ينبغي ان يتوب منه وكان علي يرى انه ليس ذنباً ولكنه عجز في الرأي وضعف من الفعل وانه نبه الى ذلك ونهى عنه اول الأمر .

فلما رأوه بعث ابا موسى لانفاذ الحكومة ثارت ثائرتهم ولقي بعضهم بعضاً واجتمعوا فقرروا مفارقة علي والخروج من الكوفة هذه القرية الظالم اهلها في رأيهم فخرجوا الى النهروان بعد أن أمروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي وهو من القراء معروف

---

(١) الطبري : تاريخ ج ٦ ص ٣٧ ، ٤١ ، البلاذري انساب مخطوطة باريس ص ٥٢٣ ، ٥٢٧ .

(٢) البلاذري : انساب ص ٥٣٦ مخطوطة باريس .

بالصلاح والتقوى [1] .

فلما رأى علي ان الحكمين قد اختلفا في حكمهما ولم يرشدا واتبعا اهواءهما . قرر السير الى حرب معاوية فكتب الى هؤلاء الخوارج ان اقبلوا فانا سائرون الى عدونا وعدوكم ونحن على الامر الاول الذي كنا عليه . وقد وجد الخوارج في دعوة علي هذه سبباً جديداً للسخط عليه فاجابوه « انك لم تغضب لربك ، انما غضبت لنفسك فان شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك فايس علي من اقناعهم .

واراد السير لحرب معاوية تاركا لهم مستغنياً عن معونتهم . غير أن كثرة جيشه خشوا ان يتركوهم وراءهم يخلفونهم في اموالهم وعيالهم . واصروا عليه ان يسير الى هؤلاء الخارجه ينهى امرهم . ومع ان علياً كان يكره ذلك فقد اضطر هذه المرة كما اضطر من قبل في صفين الى ان يقبل ما تريده الكثرة من جيشه [2] .

وسار علي على رأس جيشه الى النهروان وبدأت الرسل تختلف بينه وبين الخوارج يناشدهم الله ويأمرهم ان يرجعوا . فاستأمن اليه عدد منهم وانصرفت مئات منهم اخرى متفرقين وهم يقولون والله لا ندري على اي شيء نقاتل علياً . ولم يبق بد من ان يوقع علياً بالقلة المتشددة منهم . والرواة يقولون ان الوقعة اصطلمتهم فلم تبق منهم احداً . غير تسعة منهم استطاعوا النجاة .

والرواة يحدثوننا باحاديث كثيرة متناقضة عن هذه الوقعة ليعللوا اسبابها ويبرروا القتال فيها .

فرواية تقول [3] إن الخارجة التي اقبلت من البصرة يقودها مسعر بن فدكي اخذت تعترض الناس وانها لقيت عبد الله بن خباب بن الارت صاحب رسول الله قريباً من النهروان فقتلوه وبقروا بطن ام ولده عما في بطنها وقتلوا ثلاثة نسوة من طيء .

(١) الطبري تاريخ ج ٦ ص ٣٦ ، ٤٠-٤٢ ، البلاذري انساب ٥٣٣ مخطوطة باريس .

(٢) الطبري تاريخ ج ٦ ص ٤٥ .

(٣) الطبري ج ٦ ص ٤٦ . ابن عساكر . تاريخ ج ٨ ص ٣٠٢

ورواية اخرى تقول [1] ان مسعر بن فدكى قد قتل عبد الله بن خباب فاتى اصحاب النهر فانكروا عليه ذلك وهموا بقتله وفر منهم وبرئوا منه وانه حين هرب لقي اناساً من اهل خراسان حجاجاً فضرب اعناقهم ، ثم أتى المدائن فما شعر علي إلا وهو واقف على رأسه فامنه .

ورواية ثالثة [2] تقول ان مسعر بن فدكى هذا هو الذي قتل عبد الله بن خباب ولكنه قبل الموقعة اتي راية ابي ايوب الانصاري [وهي راية أمان رفعها علي مع ابى ايوب الانصاري من جاءها منهم ممن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن] في الف واعتزل .

واخرى تقول إن الذي تولى قتل عبد الله بن خباب ربيعة الفهري وطرده أهل النهر وبرئوا منه فخرج يستعرض الناس .

ورواية اخرى يرويها ابو مريم [3] لا تذكر شيئاً عن هذا الاستعراض والقتل الذي تذكره الروايات السابقة وانما تذكر ان علياً ارسل اليهم يناشدهم الله ويأمرهم ان يرجعوا فلم تزل رسله تختلف اليهم حتى قتلوا رسوله فلما رأى ذلك نهض اليهم فقاتلهم .

وتقول رواية إن علياً بعث الى اهل النهر ادفعوا الينا قتلة اخواننا منكم نقتلهم بهم ، ثم أنا تاركـكم وكاف عنكم حتى ألقى أهل الشام فلعل الله يقلب قلوبكم ويردكم الى خير مما انتم عليه من امركم . فبعثوا إليه كلنا قتلهم وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم [4] .

كل هذه الروايات تحاول ان تجد سبباً يبرر قتال اهل النهروان وقتلهم . والى جانبها روايات اخرى تظهر تردد علي وندمه على ذلك . واغلب الظن ان علياً انما حاربهم واستحل قتالهم لخروجهم على الجماعة وقد الح في دعوتهم الى العودة الى الجماعة . فلما رفضوا واصروا على الخروج منها ، استحل قتالهم . كما حارب لمثل هذا السبب طلحة والزبير في الجمل وكما حارب معاوية في صفين .

---

(١) الشماخي . السير ص ٥١ .

(٢) البلاذرى انساب مخطوطة باريس ص ٥٢٤ ، ٥٢٥ . والشماخي . السير ص ٤٧ .

(٣) الطبرى جـ ٦ ص ٥٢ .

(٤) الطبري تاريخ ص ٤٧ .

ان انتصار علي في النهر كان له اسوء النتائج عليه . ليس لانه سقط شهيداً بيدالخوارج ثأراً منه لاخوانهم الذين قتلوا في النهروان فقط . بل لانه لم يستطع بعدها في حياته ان يجمع من حوله جيشاً يسير به لحرب اهل الشام فقد خالفه قوم كثير وانتقضت عليهاطرافه وطمع اهل الخراج في كسره [1] . حتى اضطر اخيراً الى ان يقبل المهادنة بينه وبين معاوية لعلي العراق ، ولمعاوية الشام [2] .

كما رسخت هذه الوقعة اسس مذهب الخوارج وثبتت اركانه . فقد زودته بشهداء تثير ذكراهم في نفوس اتباعه روح الايمان والتضحية فقد ظل الخوارج يرون في قتلى النهروان مثلا يهتدون بهديهم ويحذون حـــذوهم ومناراً ينير لهم طريق الفداء في سبيل العقيدة .

سليم النعيمي

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٧١ .

(٢) الطبرى . تاريخ ج ٦ ص ٨١ .

مصادر البحث

المصادر القديمة :

ابن ابي الحديد : عز الدين عبد الحميد المدائني (م ٦٢٢ هـ)

شرح نهج البلاغة طبع دار الكتب العربية الكبرى القاهرة

ابن الاثير : عز الدين علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري (م ٦٣٠ هـ)

الكامل في التاريخ طبعة بولاق

ابن حزم : ابو محمد احمد بن حزم الظاهري (م ٤٥٦ هـ)

الفصل في الملل والاهواء والنحل نشر الخانجي مصر

ابن الشحنة : ابو الوليد محمد (م ٨٢٥هـ)

روضة المناظر في اخبار الاوائل والاواخر

على هامش الكامل لابن الاثير دار الطباعة القاهرة (١٢٩٠هـ)

ابن عبد ربه : احمد بن محمد بن عبد ربه الاندلسى (م ٣٢٨هـ)

العقد الفريد مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٨م

ابن عساكر : ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين العساكري

تهذيب تاريخ ابن عساكر مطبعة الترقى دمشق ١٣٤٩ هـ

ابن قتيبة : ابو محمد عبد الله بن مسلم م ٢٧٦ هـ

عيون الاخبار طبعة دار الكتب ،

الامامة والسياسة مطبعة مصطفى محمد ، مصر

ابن كثير : عماد الدين اسماعيل بن عمر الدمشقي (م ٧٧٤ هـ)

البداية والنهاية مطبعة السعادة القاهرة

الاسفراييني : أبو المظفر شاهفور بن طاهر بن محمد (م٤١٧ هـ)

التبصير في الدين تحقيقي تونس مطبعة النهضة ١٩٣٩ م

الاشعري : أبو الحسن علي بن اسماعيل (م ٣٢٤ هـ)

مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين طبعة ريتر

الاصفهاني : أبو الفرج علي بن الحسين (م ٣٥٦ هـ)

الاغاني طبعة بولاق

البغدادي : عبد القاهر بن طاهر بن محمد (م ٤٢٩ هـ)

الفرق بين الفرق مكتبة محمد علي صبيح

البلاذري : احمد بن يحيى بن جابر (م ٢٧٩ هـ)

انساب الاشراف مخطوطة باريس

« « القدس ١٦٣٦ جـ ٤، ٥

الجاحظ : أبو عثمان عمرو بن بحر (م ٢٥٥ هـ)

البيان والتبيين طبعة السندوبي القاهرة

الحيوان تحقيق عبد السلام محمد هارون مصر

العثمانية « « « « « مصر (١٩٥٥ م)

الرضي : أبو الحسن محمد بن أبي احمد (م ٤٠٦ هـ)

خصائص امير المؤمنين علي بن أبي طالب النجف ١٩٤٩ م

الشهرستاني : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (م ٥٨٤ هـ)

الملل والنحل مكتبة الحسين التجارية القاهرة (١٩٤٨ م)

الطبري : أبو جعفر بن جرير بن رستم (م ٣١٠ هـ)

تاريخ الرسل والملوك المطبعة الحسينية مصر

المجلسي : محمد باقر (م ١١١١ هـ)

بحار الانوار طبع حجر

المرتضى : علي بن الحسين (م ٣٤٦ هـ)

الشافي في الامامة طبع حجر

المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (م ٣٤٦ هـ)

مروج الذهب ومعادن الجوهر مطبعة السعادة مصر ١٩٤٩ م

التنبيه والاشراف مكتبة خياط بيروت ١٩٦٥ م

المقدسي : مطهر بن طاهر المقدسي م ٣٥٥ هـ

البدء والتاريخ باريس ١٨٩٩ م

المقريزي : تقي الدين احمد بن علي بن عبد القادر (م ٨٥٤ هـ)

النزاع والتخاصم فيما بين امية وهاشم ليدن ١٨٨٨

نصر بن مزاحم المنقري : (م ٢١٢)

صفين المؤسسة العربية الحديثة القاهرة ١٣٨٢

اليعقوبي : احمد بن أبي يعقوب بن وهب الكاتب (٢٨٢ هـ)

تاريخ اليعقوبي المكتبة المرتضوية النجف ١٣٥٨ هـ

المصادر الحديثة :

احمد امين : فجر الاسلام

سهير القلماوي: ادب الخوارج

حسن ابراهيم: تاريخ الاسلام السياسي

فانهوزن : الخوارج والشيعة

كاتاني : حوليات

كولدتزيهر : العقيدة والشريعة

محمد الخضري : محاضرات تاريخ الامم الاسلامية

دائرة المعارف الاسلامية